غبار العتمة

يوسف المحيميد

لسنوات، لم تجتز قدمُها عتبةَ الباب، ولم يتلصَّصْ ضوءُ الشارع داخلاً، في عمق منزلها المحشور عنوةً بين منازل الحارة. فمنذ أن صارتْ وحيدة لم تهوِ من أمام عينيها الكابيتين، ولو لثوانٍ، وصيَّتُهُ الأخيرة، فآثرت ألاّ تمسّ نعلُها البلاستيكيّةُ الخضراءُ ترابَ الشارع، لئلا يتململ حانقاً في تربته إلى يوم الدين.

ورغم الغبار الذي يتكاثف على عتبة الباب المهجورة، فإنّ أعين الخلق ردّدتْ بأنّ ثمّة ملامحَ حذاءٍ قد فضّت الغبار. على أن قلّة أشاروا بنظراتهم الحانية، إلى أنّها تتقاطر بغلالتها السوداء ومعطفها الصوفي الطويل، خارجةً في الليل المليء بالصراصير وبالصقيع.

لا أحد يجزم تماماً إن كانت قد خَطَتْ بقدمها في الشارع، أو أن يحدّد شخصاً بعينه، كالبائع في الدكان المتأرجح في ناصية الشارع، أو النظّاف، أو الجار. إلا أنهم جميعاً توقّعوا أن أحذية كثيرة ومشاعيبَ مجلوّةً، سوف تنهال بقسوة، على أكداس غبار العتبة، وأنّ أنيناً خفيضاً سيعلو شيئاً فشيئاً حتى يخمد فجأة، ويعود كالعادة يعلو الغبار هائلاً، كانساً بكثافته الخطى والخطايا.

وإذ تجلس الحكّاءاتُ، ويُفِضْنَ في الضحى، فلا بد أن يذكرن، أنّها مذ ارتبكَ نسيجُ القميص القطني، بغواية صدرها المتماسك، وحتى قبل أن تدخل عزلتها، كانت تحلم بأن ترى البحر، وأن تدخل فيه، نازعةً وحشةَ الصحارى الخاوية، إذ تردّد دائماً:

«أشوف البحر، وأموت».

ولأنّ النافذة الخشبية الوحيدة المطلّة على الشارع لم تنفتح يوماً، ولم ينفذ عبرَها ضوءٌ، أو دندنةٌ لامرأة وحيدة، مثلاً، فإنّ أحداً لم يكن يدرك كثرةَ تَنَقُّلِها وحيدةً داخل أنحاء المنزل الصغير، ولا كيفيَّة دخولِها غرفته التي يلتمّ فيها رجاله. وحتى لو تخيّل الناسُ أنها تذكر بعضه بمطالعة أشيائِهِ الحميمة، فإنّ أحداً لم يكن يظنّ، ولو ظنّاً، أنها في مساءٍ، كذاك المساء البعيد، قد دخلت الغرفةَ تلك، على أربع، تتشمم رائحتَه، جائلةً بوجهها على مساند الإسفنج المصطفّة على جدران الغرفة؛ وإذ تشعر بالإنهاك والتعب، تسند ظهرها على الإسفنج، رافعةً وجهها بعينين مغمضتين نحو السقف، حالمةً بالبحر، حتى لتشعر بشيء ما يتحرّك خلفها، لم تدركه للوهلة الأولى، لكنه عاد يتململ ببطء؛ ورغم أنّها جرّبت أن تلكزه بمرفقها القاسي، فإنّه تسلّل هادئاً، ذاك الحيوان الإسفنجي، طافحاً أمام عينيها الجميلتين، مخلّفاً فقاعاتٍ ترتفع عالياً، حتى إنها لمحت بعض فقاعات مائية تعلو من منخريها الصغيرين، بينما ذراعاها البيضاوان تعومان في موجات ثقيلة من الماء. تفتح عينيها في مواجهة الماء المالح، وحيوانات إسفنجية بأشكال هلامية تحاصرها، تخفق بذراعيها، وتزداد فقاعات منخريها الصغيرين، وبعدما تتوسّط فضاء الغرفة، تتداعى وئيدةً حتى تلامس القاع، وتقلّ الفقاعات الناشئة من غابة وجهها كخيط سريٍّ يتسامق عالياً، فقاعات شحيحة، ثلاث فقاعات إحداها ضخمة، فقاعتان، واحدة، ثم لا شيء.

لا شيء أبداً

فقط بعضُ غبار لايني يهدر كقطيع لا حدّ له، فوق عتبة باب منزلها.